خارج السياق:
ضياع البوصلة! (*)

آخطر ما يقع فيه الأفراد، وتتردى المجتمعات، أن تضيع منها البوصلة.. أن تفقد المؤشر على الاتجاه أو التوجه الصحيح!. أقول هذا لمشهد مستفز جرى على شهور، أفرغت له وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية مساحات كبيرة، جعلت طرفى قصته أبطالاً، مع أنهما خالفا الدين،والقانون، والعرف، والتقاليد، وما عاشت عليه الأسرة المصرية، بأن أقاما معا - بإقرارهما! - علاقة آثمة يحرمها الدين الإسلامى، والأديان بعامة، ويشجبها القانون والعرف والتقاليد، أنبتت طفلة بريئة، هى "الضحية" الوحيدة فى الموضوع!.. مضيت أراقب هذا الاحتفاء الإعلامى بوجيعةٍ ممضةٍ، يعترينى إحساس دفين ومؤلم بأننى قد تجاوزنى الزمن، ما دمت غير قادر على فهم سببٍ عاقلٍ واحدٍ لهذا الاحتفاء المقرون بغياب الحياء الذى تعودناه.. يصور "البطلين" من كافة الأوضاع والزوايا، وكأنهما أتيا بما لم يأت به الأوائل، ولن يقدر عليه الأواخر.. منعت نفسى من التعليق على ما يجرى، فذلك معناه أننى قد استُدرجت إلى المستنقع الذى أعترض على هذا الاهتمام المدهش به.. وكنت خليقا بأن أبقى على صمتى أو عزوفى، لولا أن استفزتنى صورة متنطعة، لأحد بطلى "الملهاة" أو "المأساة "، على صدر صحيفة، تحمل خبر حكم قضائى برفض دعوى إثبات نسب الطفلة الضحية، وتحمل معها الصورة

---

* ٢٠٠٦/٢/٩ (صدر الحكم الاستئنافى لصالح الطفلة الضحية فى ٢٠٠٦/٥/٢٤)

المستفزة للسيد البطل الهمام، يضحك ملء شدقيه، فرحاً سعيداً مبتهجاً مختالاً بالحكم الذى أفلته من نسب طفلةٍ أقر علنا على رءوس ملايين الأشهاد، بعلاقته وبنائه بالأم التى أنجبتها، ومع ذلك يسيغ لنفسه أن يستغل القانون الضرير الذى سكت وقعد عن مواكبة مفرزات العصر وحقائق العلم، وعن سن ما ينصاع لموثوقات العلم المؤكدة التى لم تكن متاحة فى الزمن الغابر الذى فيه اجتهد الفقهاء ما وسعهم الاجتهاد فى زمانهم، واحتاطوا خشيةً واتقاءً من محاذير الادعاءات المرسلة ومخاطر اختلاط الأنساب فى غياب دليل علم يقينى قاطع ومؤكد يريح المفتى أو القاضى من مظنة" الاحتمالات" إزاء الادعاءات أو الدعاوى القولية المرسلة بلا دليل يقينى!

كان هذا الاحتياط محموداً فى أوانه، فما كان باليد حيلة للقطع فى شىء لا وسيلة للقطع فيه برأى، بيد أن هذا لم يعد له الآن محل، فقد خلص العلم إلى حقائق قطعية دامغة لا تأتيها أى مظنة ولا يتطرق إليها أى احتمال، فنتيجة تحليل الـ (D.N.A)، تأتى بنتيجة قاطعة جازمة مؤكدة فى إثبات النسب أو نفيه.. راجعت فى هذا أحد أساتذة أمراض النساء الكبار بجامعة القاهرة، فأكد أن لكل إنسان "شفرة" خاصة فى هذا الشأن، تختلف من شخص لآخر، ولا تتكرر ـ شأن البصمة ـ بين شخصين، وأن نتيجة هذا التحليل تأتى يقينا دامغا، نفياً أو إثباتاً، وأن هذا الاختبار هو هو الذى انصاع أمامه الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون فيما رفع من على رداء متدربة البيت الأبيض.. يومها لم يعد أمام الرئيس الأمريكى على ضخامة منصبه وعظيم سلطانه وسلطاته، إلاّ أن ينصاع مقراً بما لابد من الإقرار به، واضعا نفسه تحت المحاكمة العلنية التى تابع العالم مشاهدها بقاعة الكونجرس الأمريكى!

ليس مقصودى أن أعترض على الفرح والضحك والابتهاج، فالضحك سمة جميلة، محببة للنفس، وللغير.. بل هو يوصف للحزانى والمكروبين أن يقاوموا التجهم والعبوس، وأن يشدوا قسمات الوجه راسمين بها "بسمة" أو "ضحكة"، لأنها سرعان ما تسرى وتتغلغل من ظاهر ملامح وقسمات الوجه، إلى داخل وباطن النفس، فتطفئ ما فيها من حزن وهم وكرب وضيق وغم واكتئاب، وتشيع فى حناياها بهجةً وسروراً وإشراقاً.. ولكن هذا لا يعنى الضحك خارج السياق، فقد ينطوى الضحك أو التضاحك المعلن أو المباهى به فى غير محله ومناسبته، على فجاجة و "قلة طهى"، أو مفارقة للياقة والأدب!.. لذلك ومع أن الإسلام ليس دينا عبوساً ولا متجهما، فإنه قد حذر ونهى عن الضحك والفرح والمرح فى غير موضعهم.. الإنسان مدعو إلى الاقتصاد فى "الفرح" حتى ولو كانت له أسباب حقيقية وكان له معنى، فكيف به إذا جافى الذوق واللياقة والأدب؟!.. القرآن المجيد ينصح أهل العقل، فيقول لهم: "لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ" (الحديد ٢٣).. وفى سورة القصص: "إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ "! (القصص ٧٦).. وآخرين يقول لهم سبحانه محذرا: " وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ " (الرعد ٢٦).. وفى تقريع الفرحين بغير حق، وما سوف يقونه من جزاء: " ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" (غافر ٧٥)..

السيد الفرح المرح المبتهج الضاحك الساخر من عجز القانون القعيد والمنطق الكسيح، لا يوجد له داخل ولا أعماق تعينه على التأمل.. وهو لو فعل لانكتمت ضحكاته الفرحة بلا معنى يقبل عليه عاقل، ولأدرك أن عين السماء لا تنام، وأنه وإن كانت الأم قد أخطأت معه كما أخطأ واعترفا، فإن إثمه أكبر وجريرته هائلة طويت على جرم آخر بإنكاره وفرحه بإنكاره "بنوة" طفلة.. يعلم أنها ابنته من صلبه، ولا يجزئه فى الإفلات من هذه الحقيقة إلماحه

المؤسف بشيوعٍ يدعى أنه لا يضمنه، فلو صدق لقبل راضيا الخضوع للتحليل وهو مطمئن البال أنه لن يَنْسب إليه طفلةً من غير صلبه، وأنه لو نسبها إليه فهى بالقطع واليقين إبنته، ومن صلبه.. نكوله عن التحليل هو نكول العارف المتيقن من أن الطفلة من صلبه.. وفى معتقدى أن الشرع الإسلامى برئ من أى تمسح به، فالحديث النبوى: "الولد للفراش، وللعاهر الحجر "، لا ينطبق على الحالة، لأنه يعرض لادعاء "الأجنبى" نَسَباً لطفل ولد على فراش الزوجية لزوجة رجلٍ آخر، أما بعض الآراء التى ارتأت أن "الزنى" بعامة لا يثبت نسباً، لأن "ماء" الزنى ـ فيما يقولون! ـ نجس أو فاسد، فإنه قول مرجوح وفاسد أيضا، يقابله آراء أخرى أفاض فى بيانها أهل الفقه والعلم، فضلا عن أنه لا مصدر له فى القرآن المجيد أو السنة النبوية الشريفة، بل يوجد فى الأثر ما يناقضه!..

على أن الأهم أن ذات الأساس الذى اعتمد عليه القائلون بمنع ثبوت النسب من زنى، أن حجتهم بنجاسة أو فساد "الماء" أى "المنى" أو "النطفة "، حجة فاسدة باطلة، لأن النجاسة والفساد يلحقان بالفعل، ولا يلحقان" بالماء" الذى خلقه الله، فخلقة الله بريئة بذاتها من النجاسة، وهذه الخلقة ممثلة فى "النطفة "، وهى "المنى "، أساس عملية الخلق التى لايملكها ولا يهبها إلاّ الله تعالى، سبحانه عز من قائل: "فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ❖ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ ❖ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" (الطارق ٥ ـ ٧).. "أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ❖ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى" (القيامة ٣٦، ٣٧).. يخبر القرآن المجيد أن خلقه سبحانه للإنسان، يجرى بهذا الماء أو النطفة، ففى سورة الإنسان: "إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا " (الإنسان /٢).. وفى سورة عبس: "مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ" (عبس ١٩)، وتكرر ذلك فى سورة "المؤمنون"و "الحج" و"يس "، وهذه "النطفة "، أو "ماء المنى "، صناعة وخلقة ربانية، لا يستقيم عقلاً ولا منطقاً أن

توصف أو تنعت بالنجاسة، ويتهاوى بذلك سند الاجتهاد الفقهى فى الزمن الغابر والصادر بلا معين من القرآن أو السنة. واحتياطاً فيما يبدو لافتقاد المتاح فى ذلك الزمان الوسيلة القاطعة الجازمة لإثبات النسب، وهو مالم يعد له الآن محل إزاء ما اهتدى إليه وقطع به العلم فى تحليل الـ (D.N.A)!

ما قطع به العلم من جزم نتيجة التحليل بصاحب "النطفة" (المؤمنون ١٢، ١٤)، يعنى وبالتأكيد أن نكول صاحب الضحكة الفرحة عن التحليل، هو نكول العارف المتيقن أن النتيجة ستثبت أن الطفلة من صلبه!.. هذا النكول حجة عليه، فهو كنكول الموجه إليه اليمين الحاسمة، الذى يقوم نكوله عن حلفها دليلاً على إقراره بصحة ما يدعيه خصمه، وليس على المشرع المصرى إلاّ أن يضيف نصاً واجب الإضافة إلى التشريع الحالى لإلزام منكر النسب بالتحليل وإلاّ نهض نكوله حجة على ثبوت النسب!

السيد الضاحك المتضاحك، الفرح المتفارح، يعلم إذن أن الطفلة من صلبه، وإلاّ لقبل التحليل.. قد يستطيع أن يتترس بالحكم، وليس يدرى ما سوف يجىء فى الاستئناف، ولكن ماذا سيقول لنفسه حين يخلو إليها ويتأمل فيما فعل؟!، وماذا سيقول لنفسه حين تكبر الطفلة يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وعاماً بعد عام؟!.. تجرى بين لداتها فى الحضانة والمدرسة، ولكن بضحكة باهتة شاحبة أو غائبة أو مراره مخفاة، وإحساس دفين يقتل طفولتها وينسف بناءها النفسى نسفاً، ويسود أيامها ولياليها ؟!.. هل سيبقى قرير العين وهو يتابع عن بعد مأساة ضناه؟!.. ماذا لو اعترضها عارض، أو ألم بها مكروه. أو أصابها حادث، أو اجتاحتها محنة؟!.. هل سيصم أذنيه، ويوصد قلبه، ولكنه مهما أحكم رتاجه، لن يوقف تسرب هذا كله إلى صفحة وجدانه.. مهما بالغ فى شد ستائر التجاهل وتجفيف ينابيع الرحمة!.. ستلاحقه صورة هذه الطفلة مهما هرب وتجاهل وتحجر!..

ستناديه عبراتها السخينة فى صحوه ومنامه، وذهابه وإيابه!. هل سيحتمل نظرات عتاب الناس، الصامتة أو الناطقة، من الأقربين والبعداء!!.. هل يمتلك لهم إجابة كيف طاوعه قلبه أن يلقى "ضناه" بعيداً عن رعايته ومشاعره ودعمه؟!.. ستكبر هذه الطفلة، ويوما ما ستتزوج وتنجب أحفادا له شاء أم أبى!.. ماذا سيقول لذريته إن تزوج من أخرى وأنجب؟!.. أسيقول لهم إن القانون (الضرير) عجز عن إلزامى بتحليل الـ (D.N.A)، وقعد عن أخذى بقرينة امتناعى عن التحليل - فأفلت بجلدى؟!.. هل سيفهم ويفهم السامعون أنه أفلت بجلده من جلده، ومن نطفته وعلقته التى خلقها الله "مضغة" وخلق المضغة عظاماً وكساها سبحانه وتعالى لحما ثم أنشأها خلقاً آخر "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (المؤمنون ١٤)؟!.. هل سيستطيع حين تمضى سنوات العمر، ويفارق الشباب ونزواته وجموحاته، ويستقبل شيئا من النضج والحكمة، أن يرتاح لما فعله، أو يطمئن له جنب فى مرقده، أو يهدأ له بال فى سعيه وحركته؟!

لست أدرى، ولعله يدرى أو لا يدرى، ولكنى لا أحب أن أنهى هذه الكلمات قبل أن أهيب ببناتنا أن يلتفتن إلى الثمن الفادح للإثم وللغدر جميعاً، وأن أهيب بالحكومة والمجلس القومى للمرأة والسلطة التشريعية، سرعة إصدار تعديل يضيف إلى القانون مادة تلزم منكر النسب بإجراء التحليل الـ (D.N.A)، وإلاّ عد نكوله دليلاً على صحة إسناد النسب المنكور إليه!